﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣﴾ [النّحل: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين تنزّل الملائكة، ودَلائِلُ التَّوْحِيدِ في خَلقِ السّماواتِ والأرْضِ

لمّا وحَّدَ اللّهُ نَفْسَهُ سُبْحانَهُ، دَلَّ على ذَلِكَ التَّوحيدِ بقولِهِ شارِحًا لإيجادِهِ أُصولَ العالَمِ وفروعَهُ على وجْهِ الحِكْمَةِ، فذكرَ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهُما[1].

وتفصيله: أنَّه لمّا بَيَّنَ فيما سَبَقَ أنَّ مَعْرِفَةَ الحَقِّ لِذاتِهِ، وهيَ المُرادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، ومَعْرِفَةَ الخَيْرِ لأجْلِ العَمَلِ بِهِ، وهيَ المُرادُ مِنْ قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، روحُ الأرْواحِ، ومَطْلَعُ السَّعاداتِ، ومَنْبَعُ الخَيْراتِ والكَراماتِ؛ أتْبَعَهُ بِذِكْرِ الدَّلائِلِ عَلَى وُجودِ الصّانِعِ الإلَهِ تعالى، وكَمالِ قُدْرَتِهِ وحِكْمَتِهِ[2]، بأسلوبٍ بديع جمعَ فيه بينَ دلالة المصنوع على الصّانع، والنّعمةِ على المُنْعِم، ونبَّه بذلك إلى أنّ كلّ واحد من هذا كافٍ في صَرْف المشركين عمّا هم عليه مِنَ الشّرك[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَقَ﴾: مِنَ الفِعْلِ خَلَقَ يَخْلُقُ خَلْقًا، والخاءُ واللّامُ والقافُ أصْلانِ؛ أحدُهما: تقديرُ الشّيءِ، والآخَرُ: ملاسَةُ الشّيءِ، فأمّا الأوَّلُ فقولهُم: خَلَقْتُ الأديمَ للسِّقاءِ، إذا قَدَّرْتَهُ، ومِنْ ذَلِكَ الخُلُقُ، وهيَ السَّجيَّةُ، لأنَّ صاحِبَهُ قَدْ قُدِرَ عَلَيْهِ، وفُلانٌ خَليقٌ بكذا، وأخْلِقْ به، أي: ما أخْلَقَهُ، أي: هو ممّن يُقَدَّرُ فيهِ ذلكَ، والخَلاقُ: النّصيبُ؛ لأنَّهُ قد قُدِّرَ لِكُلِّ أحَدٍ نَصيبُهُ، والخَلْقُ: خَلْقُ الكَذِبِ، وهو اخْتِلاقُهُ واختراعُهُ، وتَقديرُهُ في النَّفسِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 105.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 171.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 55.

[العنكبوت: 17]، وأمّا الأصْلُ الثّاني: فصَخْرَةٌ خَلقاءُ، أي: مَلْساءُ، ومِنْ هذا البابِ: أخْلَقَ الشَّيْءُ وخَلِقَ، إذا بَلِيَ، وأخْلَقْتُهُ أنا: أبْلَيْتُهُ، وذلكَ أنَّهُ إذا أخْلَقَ املاسَّ[1]، والخَلْقُ المَذكورُ في الآيَةِ هو خَلقُ اللّه، أي: تَهْيِئَتُهُ سبحانَهُ مادةً ما، لتَكونَ كائنًا سويًّا بشرًا أو حيوانًا أو نباتًا أو نهرًا، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54][2].

2) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الحاءُ والقافُ أصلٌ واحدٌ، وهو يَدُلُّ على إحْكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِهِ، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ، ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّ فرعٍ إليهِ بجودَةِ الاستخراجِ وحُسْنِ التّلفيقِ، ويُقالُ: حَقَّ الشّيءُ: وجَبَ، ويُقالُ: حاقَ فُلانٌ فُلانًا، إذا ادَّعى كُلٌّ واحد مِنهُما، فإذا غَلَبَهُ على الحَقِّ قيل: حَقَّهُ وأحَقَّهُ، واحْتَقَّ النّاسُ مِنَ الدَّيْنِ، إذا ادَّعى كُلُّ واحِدٍ الحَقَّ[3]، واستعمالاتُ (الحقِّ) غيرِ المادّيَّةِ تَدورُ على الثّباتِ، لكنَّ التَّعبيرَ عَنْ مَعناها تختلِفُ مناسبَتُهُ لها حَسَبَ السّياقِ، فقَدْ يُفَسَّرُ: بالصِّدْقِ والعَدْلِ، والصَّحيحِ، والصَّوابِ، أي: ضدُّ الباطلِ الزّائفِ، وهذا أشْيَعُ استعمالاتِ الحَقِّ في القرآنِ[4]، وأمّا خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ بالحَقِّ في هذه الآيةِ فهو هنا بمعنى: الحِكْمَةِ والجدِّ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

السَّماواتُ والأرْضُ دَليلُ عَظَمَةِ الخالِقِ، وتأكيدُ تنزّهِه عنِ الشّرك

مِن أدلّة قُدرتِه وتوحيدِه سبحانَه أنّه خلق العالَم العُلْوِيَّ وهو السّماوات، والعالَم السُّفْلِيَّ وهو الأرض - بما حوت - ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: على نَهْجٍ تقتضيه الحِكْمة، ولم يخلقْهُما عبثًا، مُنفردًا بخلقِهما لم يَشْرَكْه في إنشائهما وإحداثهما شَريكٌ، ولم يُعِنْهُ على ذلك مُعين، تعالى اللّهُ عن ذلك؛ إذ ليس في قُدْرة أحدٍ سواه أن يُنشِئَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلق).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 101.

السّماواتِ والأرضَ اللّتين خلقَهُما بالحَقِّ؛ ليَسْتَدِلّ بهما العِبادُ على عَظَمَةِ خالقِهما، وأنَّهُ وحْدَهُ المُستَحِقُّ للعبادَةِ، تَنَزَّهَ سبحانه وتعاظَمَ عَنْ شِرْكِهِم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ اسْتِعمالِ الماضي ﴿خَلَقَ﴾:

خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ قَديمٌ قَبْلَ خَلْقِ الإنسانِ

ورَدَ الفِعلُ ﴿خَلَقَ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ بصيغَةِ الماضي؛ للإخْبارِ بأنَّ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ قَديمٌ قبلَ خَلْقِ الإنْسانِ؛ وذَلِكَ أنَّ الإخْبارَ عَنِ الشَّيْءِ بِصيغَةِ الماضي يَقْتَضي كَوْنَ المُخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا على ذَلِكَ الإخْبارِ[2]، وخَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ أمرٌ لا يَتَجَدَّدُ، فناسَبَهُ الماضي الدّالُّ على الانْقِضاءِ.

دلالةُ استِتارِ فاعِلِ ﴿خَلَقَ﴾:

اعْترافُ الكُفّارِ بأنَّ اللهَ هو الخالقُ للأشْياءِ كُلِّها

في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ ورَدَ فاعلُ الفِعْلِ ﴿خَلَقَ﴾ مُسْتَتِرًا لدلالَةِ السّياقِ عَلَيه، فكُلُّ ما سَبَقَهُ مِنْ كلامِ ابتداءً من قَوْلِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ هو عَنِ اللهِ ﷻ، وكَذَلِكَ فإنَّهُ مِنَ المُقَرَّرِ في النَّحْوِ أنَّ الفاعِلَ إذا كانَ مَعْلومًا جازَ عدمُ ذِكرِهِ، وفي البلاغة إذا كان كذلك فإنه يَحْسُن عدمُ ذِكْره، بحيث يكون إضمارُه مُقَدّمًا على ذِكره، ولا يُقَدَّم الذِّكْرُ على الإضمار في هذه الحالة إلّا لتحقيق فائدة أعلى من فائدة الإضمار، وكَوْنُ الخالِقِ هو اللهُ ﷻ أمرٌ مَعلومٌ حَتّى عِنْدَ الكُفّارِ، قالَ تَعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: 61]، فالمشْرِكونَ كانوا يَعْترِفونَ بأنَّ اللهَ هو الخالقُ للأشْياءِ كُلِّها، ومَعَ هذا يَعْبُدونَ مَعَهُ غَيْرَهُ.

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 56، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 98، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 267.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

دلالةُ (أل) في لفظي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

تَعْريفُ الجِنْسِ يَقْتَضي العُمومَ

ورَدَتْ كَلِمَتا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ مُعَرَّفَتَيْنِ بأداةِ التَّعْريفِ (أل)، الدّالَّةِ على تَعْريفِ الجِنْسِ، سَواءٌ أُريدَ بالسَّماءِ الجِنْسُ الصّادِقُ بِجميعِ السَّماواتِ، على طَريقَةِ العمومِ الحقيقيِّ، أو الصّادِقُ بسَماواتٍ مشهورة، على طريقة العموم العُرفيّ، وهي السّماواتُ السّبع التي يُعَبّر أهلُ الهيئةِ عنها بالكواكب السَّيّارَة[1]، وكذلك الأرضُ فتعريفُها تعريفُ الجِنس المُقتضي للعموم.

دَلالَةُ جَمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفْرادِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

إفْـــرادُ الأرْضِ لِثِـقَـلِ جَمعِها الشّاذّ

ورَدَ في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ ذِكْرُ السَّماواتِ مَجْموعَةً، وذِكْرُ الأرْضِ مُفْرَدَةً، وقَدْ ذَكَرَ العُلماءُ في نُكْتَةِ ذلكَ أقْوالًا كَثيرةً، ومِنْ أحْسَنِها: أنَّ الأرضَ حيثُ وقعتْ في القرآنِ ذُكِرَتْ مُفردةً ولم تُجمَعْ - بِخِلافِ السَّماواتِ - لِثِقَلِ جَمعِها، وهو أرَضونَ، وهو جمعٌ شاذٌّ كَما قالَ ابنُ مالكٍ: "وأرَضونَ شَذَّ..."، ولهَذا لـمّا أُريدَ ذِكْرُ جميعِ الأرَضينَ قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطّلاق: 12]، وأمّا السّماءُ فذُكِرَتْ تارةً بصيغَةِ الجمعِ، وتارَةً بصيغَةِ الإفْرادِ لنُكَتٍ تَليقُ بِكُلِّ مَحَلٍّ بِخصوصِه، والحاصِلُ: أنَّهُ حيثُ أُريدَ العَدَدُ أُتيَ بصيغَةِ الجمعِ الدّالَّةِ عَلى سَعَةِ العظَمَةِ والكَثْرَةِ، نحوُ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد: 1]، أيْ: جميعُ سُكّانِها عَلى كَثْرتِهم، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجمعة: 1]، أي: كُلُّ واحدٍ على اختلافِ عَدَدِها، وحَيْثُ أُريدَ الجِهَةُ أُتيَ بِصيغةِ الإفْرادِ، نحوُ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ [الذاريات: 22]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: 16]، أي: مَنْ فوْقَكُم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 355.

دَلالَةُ فضلِ جُملَةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

فَضلُ الجُمَلِ لكمالِ الانْقِطاعِ، مِن فصيحِ البيان

ورَدَ قَولُهُ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ مَفْصولًا عَنِ الآيَةِ السّابِقَةِ ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾؛ لأسْبابٍ مِنْها اخْتِلافُ الجُملتَيْنِ خبرًا وإنْشاءً، فجُملَةُ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ إنْشائيَّةٌ، وجُملَةُ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ خَبَريَّةٌ، ومِنها أيْضًا: اخْتِلافُهُما في المعْنى، فبَعْدَ ذِكْرِ التَّوْحيدِ في الآياتِ السّابِقَةِ، شَرَعَ في هذه الآيَةِ يَذْكُرُ دَلائلَه.

دلالة الباءِ في شبه الجملة ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

بيانُ أنّ خَلقَ السّماواتِ والأرضِ وما بينهما للعَملِ والجَزاءِ

ورَدَ في قَولِه تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ لَفْظُ ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ مَجرورًا بالباءِ الدّالّةِ على الملابَسَة، أي: خَلقْنا ذلك مُلابِسًا ومُقارِنًا للحَقِّ، أوْ تَكونُ الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: بسبَبِ الحَقِّ، أي: لإيجادِ الحَقِّ مِن خلقِهما، والحَقُّ: ما يَحِقُّ وقوعُهُ مِن عملٍ أو قولٍ، أي: يجِبُ ويتَعَيَّنُ لسَبَبيَّةٍ أو تفرُّعٍ أو مُجازاةٍ، فمِنَ الحقِّ الّذي خُلقتِ السّماواتُ والأرضُ وما بينهما لأجْلِه: مُكافَأةُ كُلِّ عاملٍ بما يناسِبُ عملَهُ ويجازيه، وأيضًا يمكنُ أن يكونَ الحَقّ في هذه الآيةِ ضِدَّ العَبَثِ، أي: بمعْنى الحِكْمَةِ والجِدِّ، فيكونُ نظيرَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدّخان: 38 - 39]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ [ص: 27]، والحَقُّ والصِّدْقُ يُطلقانِ وصْفَينِ لكَمالِ الشَّيءِ في نوعِهِ[1].

دَلالَةُ الماضي ﴿تَعَٰلَىٰ﴾:

بيانُ عُلوِّ اللهِ المُطْلَقِ قَدْرًا وقَهْرًا وذاتًا

ورَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ اسْتِعمالُ الفِعْلِ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ في حَقِّ اللهِ ﷻ، ومَعْنى تَعالى: ارْتَفَعَ، وهو - أي: التّعالي - تَفاعُلٌ مِنَ العُلوِّ، فمَعْنى ﴿تَعَٰلَىٰ﴾: أنَّهُ كامِلٌ مُسْتَغْنٍ عَنْ أيِّ شَريكٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 101.

وصِفَةُ العُلوِّ مِنْ صِفاتِهِ المُخْتَصَّةِ بِهِ سُبْحانَهُ، فلله العُلوُّ المُطْلَقُ بِكُلِّ اعْتِبارٍ، ولَهُ العُلوُّ المُطْلَقُ مِنْ جَميعِ الوُجوهِ: عُلوُّ القَدْرِ، وعُلوُّ القَهْرِ، وعُلوُّ الذّاتِ، فمَنْ جَحَدَ عُلوَّ الذّاتِ فقَدْ جَحَدَ لَوازِمَ اسْمِهِ العَليِّ[1].

دلالَةُ اسْتِتارِ الفاعِلِ في ﴿تَعَٰلَىٰ﴾:

لا ينصرف إطلاقُ الفعلِ (تعالى) إلّا لله وحدَه دونَ سواه

في قَولِه تَعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورَدَ فاعِلُ الفِعلِ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ مُسْتَتِرًا لدلالَةِ السّياقِ عليه، فالتَّعالي والعُلوُّ الحَقُّ لا يكونُ إلّا للّه، فهو مِن صفاتِ الرَّبِّ الخالِقِ الذي لا يَليقُ إلّا به، ولا ينصَرِفُ الذِّهنُ عند إطلاقِ هذا الفِعْلِ إلّا لذي العِزَّةِ والجلالِ والكبرياءِ، ولهذا يُقالُ إيجازًا: قالَ تعالى كذا وكذا، فصارَ في قوَّةِ العَلَم.

العِلَّةُ وراءَ تكرارِ ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في الآيتين:

تنزيهُ اللهِ عنِ الشُّركاءِ بالأدِلّةِ العقليّة القاطِعةِ

في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهنا: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ تكرّرتْ عبارةُ ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في الآيتين على سَبيلِ الاستئنافِ الابتدائيّ، فالمشركونَ لمّا سَمِعوا في الآيةِ الأولى تنزيهَ اللّهِ عنِ الشُّركاءِ، ترقَّبوا دليلَ التَّنزيهِ، فابْتُدِئَ بالدّلالَةِ على اختصاصِهِ بالخَلْقِ والتَّقديرِ، وذلكَ دليلٌ على أنَّ ما يُخْلَقُ لا يوصَفُ بالإلَهيَّةِ، كما أنبأ عنه التَّفريعُ عَقِبَ هذه الأدِلَّةِ بقوله الآتي: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: 17]، وأعقبَ قولَهُ سُبحانَه بقولِهِ: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تَحقيقًا لنتيجَةِ الدَّليلِ، كما يُذكرُ المطلوبُ قَبْلَ ذِكرِ القياسِ في صناعَةِ المنطِقِ، ثُمَّ يُذكَرُ ذلك المطلوبُ عَقِبَ القياسِ في صورَةِ النّتيجةِ، تحقيقًا للوحدانيَّة[2].

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ المُدْغَمِ ﴿عَمَّا﴾:

تَنْزيهُ الله ﷻ بِبُعْدِهِ عَنِ الشُّرَكاءِ

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حَرْفُ الجَرِّ (عَنْ) مُدْغَمًا في (ما)، وقَدْ أفادَ حَرْفُ (عن) المُجاوزَةَ، وهوتَجاوزٌ مجازيٌّ

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/ 48.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

بِحَرْفِ (عن) مُسْتَعارٌ لمَعْنى (بَعُدَ) اسْتِعارَةً تَبَعِيَّةً[1]، ومَعْنى البُعْدِ مُناسِبٌ لِسياقِ الآيةِ، مِنْ تَنْزيهِ اللّه ﷻ وعُلوِّهِ وبُعْدِهِ عَنِ الشُّرَكاءِ.

دَلالَةُ (ما) في ﴿عَمَّا﴾:

التبرُّؤ عن فعل الشرك وعن فاعله

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يَجوزُ أنْ تَكونَ (ما) مَصْدَرِيَّةً، والتَّقْديرُ: سبحانه وتعالى عَنْ إشْراكِهِم، ويَجوزُ أنْ تَكونَ بِمَعْنى الَّذي، أيْ: سبحانه وتعالى عَنْ هَذِهِ الأصْنامِ الَّتي جَعَلوها شُرَكاءَ للّه؛ لِأنَّها جَماداتٌ خَسيسَةٌ، فأيُّ مُناسَبَةٍ بَيْنَها وبَيْنَ أدْوَنِ المَوْجوداتِ، فضْلًا عَنْ أنْ يُحْكَمَ بِكَوْنِها شُرَكاءَ لِمُدَبِّرِ الأرْضِ والسَّماواتِ[2]، فعلى كونها مصدرية يكون التبرُّؤ في الآية من إشراكهم، وعلى كونها موصولة بمعنى الذي يكون التبرُّؤ والتنزه عن المعبودات التي يعبدونها من دون اللّه، فاجتمع في الآية التبرُّؤ والتنزه من الفعل والفاعل.

دلالَةُ المضارِعِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

صيغةُ المُضارِعِ تُفيدُ تَكَرُّرَ الحَدَثِ وتجدُّدَه

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الفعلُ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بصيغةِ الاستقبالِ؛ وذلك للدّلالةِ على تَجدُّدِ إشراكِهم واستمرارِه[3]؛ وذلك لأنّ اسْتِعْمالَ الفعل بِصيغَةِ المُضارِعِ يُفيدُ افْتِراضَ تَكَرُّرِ الحَدَثِ[4].

دلالَةُ عَدَمِ ذِكْرِ مُتَعَلَّقِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

حذْفُ المتعلَّقِ للعلم به

لم يَذْكُرِ السّياقُ القرآني المُتعلّقَ في قوْلِه تعالى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾، فلم يَقُل: (يشركون بِهِ)، كَما في قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: 13]؛ لِأنَّ ذَلِكَ مَعْلومٌ، والغالِبُ المستفيضُ مِن استِعْمالِ لَفْظِ الإشْراكِ في القرآن أنَّ مَعْناهُ: الإشْراكُ باللّه، ومِنَ المقَرَّرِ أنَّهُ مَتى كان الفعْلُ نَصًّا في مَطْلوبِهِ لا يُذْكَرُ المُتَعَلَّقُ بِهِ[5] إلّا لِغَرَضٍ بَلاغِيٍّ آخَرَ مَقْصودٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 58.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 168.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 95.
(4) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 78.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 7904.

تَوْجيهُ القراءاتِ المتواتِرَةِ في ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

التجانس في الخطاب والتقليل من شأن المشركين

ورَدَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قراءتانِ مشهورَتانِ، فقرأ حَمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿عَمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بمثّناةٍ فوقيةٍ، وتوجيهُها أنّها خطابٌ مجانِسٌ للخطابِ الأوّلِ في قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ﴾، وقرأ الجمهورُ وهم الباقونَ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالياءِ على الابْتِداء؛ لا يَرُدّونَ على أوّلِ الكَلامِ، ولَهُم في ذلك حُجَّتانِ:

إحْداهما: أنَّ سعيد بن جُبَيرٍ قَرَأ (أتى أمر الله فلا يستعجلوه) بالياءِ.

والثّانيَةُ: أنّ اللّه تَعالَى أنزلَ القُرْآنَ على مُحَمَّد ﷺ، فقالَ مُحَمَّدٌ تَنْزيهًا للّه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] على طَريقَةِ الالتفاتِ، فعَدَلَ عَنِ الخِطابِ ليَخْتَصَّ التَّبَرُّؤُ مِنْ شَأْنِهم أنْ يَنْزِلوا عَنْ شَرَفِ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ[2].

وجْهُ الاختِلافِ بين جُملتَي التّسبيح والتّنزيه:

إبْطالُ شَفاعَةِ الأصْنامِ، وإثباتُ حُدوثِ المخلوقاتِ، تنزيهًا لله

ورَدَتِ الجُملةُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مُسْتأنفةً استِئنافًا ابتدائيًّا؛ لأنّها المقْصودُ مِنَ الوعيدِ، إذِ الوعيدُ والزَّجْرُ إنَّما كانا لأجْلِ إبطالِ الإشراكِ، فكانَتْ جملةُ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ كالمقدِّمَةِ، وجملةُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كالمقْصِدِ، أمّا جُملةُ ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ - في الآية هنا - فهي مُعترِضَةٌ، كما أنَّ الفائِدَةَ المطلوبَةَ من قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في أوَّلِ السّورةِ غيرُ الفائِدَةِ المطلوبَةِ من ذكْرِ ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ المطْلوبَ في الأولى إبْطالُ قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ الأصنامَ تَشفَعُ للكفّارِ في دفْعِ العقابِ عنهُم، وأمّا المقصودُ مِنَ الثّانيَةِ فهو إبطالُ قولِ من

(1) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 98.

يقولُ: الأجسامُ قديمةٌ، والسَّماواتُ والأرضُ أزَليَّةٌ، فنزَّهَ اللّهُ سُبحانَهُ نفسَهُ عن أن يُشارِكَهُ غيرُهُ في الأزَليَّةِ والقِدَمِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْقُ والبناء:

الـخـلـقُ أعـمُّ دَلالةً مِنَ البِناءِ

يَتَّضِحُ الفَرْقُ بينهما أنَّ الخَلْقَ أعمُّ دَلالةً مِنَ البِناءِ؛ وذَلِكَ لأنَّ الخَلْقَ يُطلقُ على معنيين: الإيجادُ مِنْ غَيْرِ مِثالٍ سابقٍ، فالخَلْقُ بهذا المعنى مختَصٌّ باللّه وحدَهُ، قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: 11]، وقَدْ يَكونُ الخَلْقُ بمعنى التَّقْديرِ، وعِنْدَئذٍ يَدخُلُ فيه البِناءُ الذي هو تَركيبُ الشّيءِ بضَمِّ بعضِهِ إلى بعضٍ وفقَ تقديرٍ مُعَيَّنٍ.

تَعالَى وتَعاظَمَ:

العَـظـمَـةُ والعُلوُّ صِفتانِ مختَصَّتانِ بالعَظيمِ سُبحانَه

يَتَّضِحُ الفَرقُ بينهما في اشْتِقاقِ كُلِّ لَفظٍ منهما، فلَفْظُ (تعالى) مُشتَقٌّ مِن صِفَةِ العُلوِّ لَهُ ﷻ، و(تَعاظَمَ) مُشْتَقٌّ مِنْ صِفَةِ العَظَمةِ لَهُ سُبْحانَهُ، فعَظَمَةُ اللّهِ لا تُكَيَّفُ ولا تُحَدُّ ولا تُمثَّلُ بِشَيْءٍ، ويجبُ على العِبادِ أن يَعْلَموا أنَّه عَظيم كَما وصَفَ نَفْسَهُ، وفَوقَ ذَلِكَ، بِلا كَيْفيَّةٍ، ولا تَحْديدٍ[2].

وصِفَةُ العَظَمَةِ للّه تَعالى تَعْني: العظَمَةَ في كُلِّ شيءٍ، بما يَليقُ به سُبحانَه، فهو عَظيمٌ في رُبوبيَّتِه، عظيمٌ في أُلوهيَّتِه، عظيمٌ في أفعالِه، عَظيمٌ في قُدْرتِه، ولا يوجدُ وصفٌ للعَظَمَةِ ممّا يَليقُ بجلالِهِ سبحانَهُ إلّا وهو مُتَّصِفٌ بِهِ، كَما لا يوجَدُ وصْفٌ مِن أوصافِ الكَمالِ الّتي تليقُ به سُبحانَهُ إلّا كانَ أولى بِها.

وأمّا صِفَةُ العُلوِّ للّه سُبْحانَهُ، فلله العُلوُّ المُطْلَقُ بِكُلِّ اعْتِبارٍ، فلَهُ العُلوُّ المُطْلَقُ مِنْ جَميعِ الوُجوهِ: عُلوُّ القَدْرِ، وعُلوُّ القَهْرِ، وعُلوُّ الذّاتِ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 172.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 2/ 182.
(3) ابن القيّم، مدارج السالكين: 1/ 48.

الشّرك والكُفر:

الكُفْرُ أعَـمُّ مِنَ الشِّـرْكِ دَلالَـةً، وأكْثَرُ خِصالًا

بَيْنَ لَفْظَيْ: (يُشْرِكونَ) و(يَكفُرونَ) عُمومٌ وخُصوصٌ، فيُخَصُّ الشِّرْكُ بِعَبَدَةِ الأوْثانِ وغَيْرِها مِنَ المَخْلوقاتِ، مَعَ اعْترافِهِم باللّه تَعالى رَبًّا، كَكُفّارِ قُرَيْشٍ، فيَكونُ الكُفْرُ أعَمَّ مِنَ الشِّرْكِ[1]، وكَذَلِكَ الكُفْرُ خِصالٌ كَثيرَةٌ، وكُلُّ خَصْلَةٍ مِنْها تُضادُّ خَصْلَةً مِنَ الإيمانِ؛ لِأنَّ العبْدَ إذا فعَلَ خَصْلَةً مِنَ الكُفْرِ، فقَدْ ضَيَّعَ خَصْلَةً مِنَ الإيمانِ، وأمّا الشّرْكُ فهو خَصْلَةٌ واحِدَةٌ، وهو إيجادُ آلهَةٍ مَعَ اللّه أوْ دونَ اللّه، واشْتِقاقُهُ يُنْبِئُ عَن هَذا المعْنى فلَفْظُ الشِّرْكِ مَأْخوذٌ مِنَ الشَّريكِ، فمَنْ لم يجْعَلْ للّه شَريكًا فلَيْسَ مُشْرِكًا[2]. كَما يَظْهَرُ الفَرْقُ بَيْنَ الشّرْكِ والكُفْرِ في اخْتِلافِ نَقيضِهما، فنَقيضُ الشِّرْكِ في الحقيقَةِ الإخْلاصُ، ونَقيضُ الكفْرِ الإيمانُ[3].

(1) النّووي، شرح مسلم: 1/ 62.
(2) ابن حزم، الفِصل والنِّحل: 3/ 264.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 230.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»